

في عيوب النفس وال بصيرة بها



اعلم أنَّ إِذَا أَرَادَ بَعْدَ خِيرًاَ بصره بعيوب نفسه فمَنْ كَمَلَ لَهُ بَصِيرَتُهُ لَمْ تَخْفَ عَلَيْهِ عِيوبَهُ، وَإِذَا عَرَفَ الْعِيوبَ أَمْكَنَهُ الْعَلاجُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ جَاهَلُونَ بِعِيوبَ أَنفُسِهِمْ يَرَى أَحَدُهُمُ الْقَدْرَ فِي عَيْنِ أَخِيهِ وَلَا يَرَى الْجَدْعَ فِي عَيْنِ نَفْسِهِ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَقْفَى عَلَى عِيوبِ نَفْسِهِ فَلِيَطْبُلْ صَدِيقًاَ صَدُوقًاَ بَصِيرًاَ مَتَدِينًاَ فَيَنْصِبُهُ رَقِيبًاَ عَلَى نَفْسِهِ لِيَرَاقِبَ أَحْوَالَهُ وَأَفْعَالَهُ، فَمَا يَكْرَهُهُ مِنْ أَخْلَاقَهُ وَأَفْعَالَهُ وَعِيوبَهُ الْبَاطِنَةُ وَالظَّاهِرَةُ يَنْبَهُهُ عَلَيْهِ أَوْ يَسْتَفِيدُ مَعْرِفَةً عِيوبَ نَفْسِهِ مِنْ لِسَانِ أَعْدَائِهِ، فَإِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تَبْدِي الْمَسَاوِيَ كَمَا قِيلَ:

وعَيْنُ الرَّضَا عَنْ كُلِّ عِيْبٍ كَلِيلٍ ** وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تَبْدِي الْمَسَاوِيَ

وَلَعِلَّ اِنْتِفَاعَ إِلَّا إِنْسَانٌ بَعْدَوْ شَاحِنٌ يَذَكِّرُ عِيوبَهُ أَكْثَرَ مِنْ اِنْتِفَاعِهِ بَصِيرٌ مَدَاهِنٌ يَثْنِي عَلَيْهِ وَيَمْدُحُهُ وَيَخْفِي عَنْهِ عِيوبَهُ إِلَّا أَنَّ الطَّبِيعَ مَجْبُولٌ عَلَى تَكْذِيبِ الْعُدُوِّ وَحَمْلِ مَا يَقُولُهُ عَلَى الْحَسْدِ، وَلَكِنَّ الْبَصِيرُ لَا يَخْلُو عَنِ الِانْتِفَاعِ بِقَوْلِ أَعْدَائِهِ فَإِنَّ مَسَاوِيَهُ لَابِدٌ وَأَنْ تَنْتَشِرَ عَلَى أَلْسُنِهِمْ، أَوْ يَخَالِطُ النَّاسَ فَكُلُّ مَا يَرَاهُ مَذْمُومًاَ فِيمَا بَيْنَ الْخُلُقِ فَيَطَالِبُ نَفْسَهُ بِتَرْكِهِ؛ وَمَا يَرَاهُ مُحَمَّدًاَ يَطَالِبُ نَفْسَهُ بِهِ وَيَنْسِبُ نَفْسَهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ مَرَأَةَ الْمُؤْمِنِ فِي عِيوبِهِ فَيَرِي في عِيوبِ غَيْرِهِ عِيوبَ نَفْسِهِ.

وَلِيَعْلَمَ أَنَّ الطَّبَاعَ مُتَقَارِبٌ فِي اِتِّبَاعِ الْهُوَى فَمَا يَتَّسَعُ بِهِ وَاحِدٌ مِنَ الْأَقْرَانِ لَا يَنْفَكُ الْقَرِينُ الْآخَرُ عَنْ مُثْلِهِ أَوْ عَنْ أَعْظَمِهِ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ، فَيَتَفَقَّدُ نَفْسَهُ وَيَطْهُرُهَا عَنْ كُلِّ مَا يَذْهِمُهُ مِنْ غَيْرِهِ، وَنَاهِيَكَ بِهِذَا تَادِيَباًَ، فَلَوْ تَرَكَ النَّاسُ كُلَّهُمْ مَا يَكْرَهُونَهُ مِنْ غَيْرِهِمْ لَاستَغْنَوُا عَنِ الْمَؤْدِبِ قَيْلُ لَعِيسَى (ع) : "مَنْ أَدَّ بَكَ؟ فَقَالَ: مَا أَدَّ بْنِي أَحَدٌ رَأَيْتَ قَبْحَ الْجَهْلِ فَجَانَبْتُهُ".

وَفِيمَا يُؤْدِي إِلَى مَسَاوِيِ الْأَخْلَاقِ مِنَ الْبَطْنِ وَالْفَرْجِ وَاللِّسَانِ، اعْلَمَ أَنَّ الْأَخْلَاقَ إِنَّمَا تَنْتَسِّخُ فِي النَّفْسِ بِتَكْرِيرِ الْأَعْمَالِ، وَالْأَعْمَالِ إِنَّمَا تَصْدُرُ مِنَ الْقَلْبِ بِتَوْسِّطِ الْجَوَارِحِ وَكُلِّ جَارِحةٍ تَصْلِحُ لَأَنْ يَصْدُرَ مِنْهُ الْأَعْمَالُ الْحَسَنَةُ الْجَالِبَةُ لِلْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ وَأَنْ يَصْدُرَ مِنْهُ الْأَعْمَالُ الْقَبِيْحَةُ الْمُوَرَوَّثَةُ لِلْأَخْلَاقِ الْسَّيِّئَةِ، فَلَابِدٌ مِنْ مَرَاعَاةِ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ بِصَرْفِهِمَا إِلَى الْخَيْرَاتِ وَمَنْعِهِمَا مِنِ الشَّرُورِ، وَأَعْظَمُ الْمَهْلَكَاتِ لَابْنَ آدَمَ شَهْوَةُ الْبَطْنِ وَالْفَرْجِ وَاللِّسَانِ.

فِي الْحَدِيثِ النَّبِيِّ (ص): "مَنْ وَقَى شَرَّ قَبْقَبَهُ وَذَبَذَبَهُ وَلَقْلَقَهُ فَقَدْ وَقَى" وَالْقَبْقَبُ الْبَطْنُ، وَالْذَبَذَبُ

الفرح، واللقلق اللسان أما شهوة البطن فيها أخرج آدم وحواء من دار القرار إلى دار الذل والافتقار إذ نهيا عن أكل الشجرة فغلبتهما شهوتها حتى أكلا منها بدت لهما سوآتهما.

والبطن على التحقيق ينبع الشهوات ومنتها شهوة الفرج وشدّة الشبق إلى المنكوحات، ثم يتبع شهوة المطعم والمنكح شدة الرغبة في المال والجاه الذين هما الوسيلة إلى التوسيع في المطعومات والمنكوحات ثم يتبع استثناء المال والجاه أنواع الرعنونات وضروب المنا فسات والمحاسدات، ثم يتولد من ذلك آفة الرياء وغاللة التفاخر والتکاثر والكبرياء، ثم يتداعى ذلك إلى الحقد والعداوة والبغضاء، ثم يقضي ذلك بماحبه إلى اقتحام البغي والمنكر والفحشاء.

وكل ذلك ثمرة إهمال المعدة وما يتولد من بطر الشبع والامتلاء، ولو ذلل العبد نفسه بالجوع وضيق مجاري الشيطان لأذعن لطاعة الله ولم تسلكه سبيل البطر والطغيان ولم ينجر به ذلك إلى الانهماك في الدنيا وإيثار العاجلة على العقبى، ولم يتکالب كل هذا التکالب على الدنيا.

قال النبي (ص): "ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه وإن كان هو فاعلاً لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه وثلث لنفسه".

وقال (ص): "لا تمتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فإن" القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء".

وقال (ص): "أفضلكم منزلة عند الله أطولكم جوعاً وتفكراً وأبغضكم إلى الله تعالى كل" نؤوم أكول شروب".

وقال الصادق (ع): "إن" البطن ليطغى من أكلة، وأقرب ما يكون العبد إلى الله خف" بطنه وأبغض ما يكون العبد إلى الله إذا امتلاً بطنه".

وقال الصادق (ع): "ما من شيء أضر" لقلب المؤمن من كثرة الأكل وهي مورثة شينين: قسوة القلب وهيجان الشهوة، والجوع ادام للمؤمن وغذاء للروح وطعام للقلب وصحة للبن".

وقال لقمان لابنه: "يا بني إذا امتلت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة".

وبالجملة ففوايد الجوع كثيرة منها صفاء القلب ورقّته والاستلذاذ بالطاعة، والانكسار المانع عن المعصية والغفلة، وذكر جوع يوم القيمة، وكسر شهوة الفرج المستولية بالشبع، ودفع الدّرم الذي يكلّ الطبع ويضيّع العمر ويقوّي القيام والتهجد ويسير المواطبة على الطاعة لخفة البدن والفراغ عن الاهتمام بالتحمّيل والإعداد والأكل ودفع الأمراض الشاغلة عنها، فورد في الحديث: "المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء". ▶